إنتاج الأفلام السينمائية بين التجربة والتطبيق[1]

خالد إبراهيم طعمة

ما أن ينتهي الفيلم حتى يشرع المشاهد بالتشريح والتجريح، سواء نال الفيلم رضاه أو سخطه، غير مُنصف من جد وتعب من أجل أن يقدم كل ما هو جديد ومختلف للجمهور. فقبل إصدار أي حكم قف لحظة وفكر، لِمَ مكثتَ برهةً من الزمن تاركاً متطلباتك ومسخراً مشاعرك وأحاسيسك تنساب مع الأحداث تنفعل تارة، وتهدأ تارة أخرى ... يشدك الشوق فتضيق أنفاسك، وتنشب برأسك حربٌ ضروس تدور رحاها بين العُقد وحلها، تجد لأحلامك المتكدسة فسحة تطلق لها العنان، لتعوم في مشاهد أُحكمَ نسجها، تترقب كل إصدار جديد وتزاحم المشاهدين على شباك التذاكر، ولا أُبرئُ نفسي من تلك الأحكام غير المبررة، ولكن بعد أن التحقت بمساق صناعة الأفلام مع برنامج البحث والتطوير التربوي/مؤسسة عبد المحسن القطان، صرت أقف ملياً قبل أن أنطق ببنت شَفَةٍ تقديراً لتلك الجهود العظيمة، فلم تُنسج خيوط بدايات السينما من فراغ، بل نمت وتطورت بعد جهود مضنية، فبعد سبعين عاماً من التجربة والخطأ، بين إيرادات خياليّة وخسائر مدمرة، تحول هذا الابتكار الذي تبلورت أبرز ملامحه العام 1895 إلى فن القرن العشرين.

لا شك أن السينما منذ نشأتها تأثرت بالمسرح، لكن التساؤل متى بدأت تأخذ منحى آخر؟ هذه القضية وغيرها كانت من ضمن محاور النقاش التي كنا نتناولها أثناء اللقاءات مع المخرجة ليلى عباس، وبخاصة بعد مشاهدة الأفلام التي كان يزودنا بها برنامج البحث والتطوير التربوي، بتنظيم من منسقة المشروع ديما سقف الحيط، حيث يتم اختيارها ضمن الحقب الزمنية المتلاحقة، فكل فيلم يحمل عبر طياته قضية معينة نمت عبر تطور السينما، ففي كل لقاء كنا نستلم مجموعة من الأفلام، ونحضرها، وندون أهم ملاحظاتنا عليها، حيث تكون تلك الأفلام محور النقاش في اللقاء القادم، فقد اختارت المدربة أسلوباً للبحث عن المعلومة؛ فقد حضّرت أوراق عمل عن أبرز المراحل التي شهدتها مسيرة التطوير في عملية الإنتاج السينمائي، وجعلت بعض القضايا بحاجة إلى بحث، فكنا نعمل ضمن المجموعات وباستخدام شبكة الإنترنت نبحث عن المعلومات وندونها، ثم نناقشها بشكل جماعي. وهذا الأسلوب شرعنا بتطبيقه مع الطلاب، فكنا نربط بالتعاون مع معلمي التاريخ والجغرافيا بين القضايا التاريخية في مطلع القرن

جانب من لقاء المعلمين مع المخرجة ليلى عباس ضمن برنامج الثقافة السينمائية، 2015.

العشرين، وبين المشاهد التي يتم اختيارها من بعض الأفلام، ففي فيلم (*Battleship Potemkin*) الذي يعرض نسخة درامية من التمرد الذي وقع في العام 1905، عندما ثار طاقم السفينة الحربية الروسية «بوتيمكين» ضد ضباطهم لدعم الثورة العمالية في مدينة سان بطرسبرغ الروسية. وأبطال الفيلم هم أفراد الطاقم من «بوتيمكين»، وهي سفينة حربية من أسطول البحرية الإمبراطورية الروسية على البحر الأسود، حيث ترك مشهد احتشاد المدنيين في الساحة، وقيام جنود الملك الروسي بإطلاق النار عليهم، أثراً بالغاً، فتلك الأحداث التاريخية ستعلق بذهن الطالب، ولا يكتفي بحفظها، ثم تذهب أدراج الرياح فور كتابتها في ورقة الامتحان.

فعندما نتحدث عن الأفلام الصامتة، يجدر بنا الوقوف عند شارلي شابلن، حيث نجح في أن يصبح أسطورة في عالم السينما، فعمد على تطوير شخصية «الصعلوك»، وإن كانت الصفات تختلف عن الصعاليك في العصر الجاهلي، إلا أن هناك قاسماً مشتركاً بينهما، يتمثل في التحايل على الأغنياء لسد حاجة الفقراء، وبسبب طول الحذاء الذي ارتداه في فيلم «سباق سيارات الأطفال»، حيث مشى فاتحاً قدمية حتى أصبحت هذه المشية جزءاً من شخصيته، إلا أن شخصية الصعلوك بدأت تختفي، وبخاصة في فيلم «الدكتاتور العظيم» (1940). كلفنا بكتابة قراءة عامة عن فيلمه أضواء المدينة (City Lights)، ومع بداية المشهد الأول شعرت بشيء يشدني لمتابعة أحداث الفيلم، فالروح الكوميدية عند البطل تضفي سعادة لدى المشاهد، والتوتر الناتج عن تراكم الأحداث تزيد الإثارة لمتابعته ... وعلى الرغم من عفوية الأحداث، فإنها تنم عن معانٍ إنسانية عميقة ممزوجة بتلك العواطف التي لازمت المَشاهد، وجعلت البطل يخوض غمار الحياة، ويتعرض للشدائد، حتى يجمع المبلغ المخصص لعملية بائعة الورد كي تبصر النور من جديد. وفي نهاية الفيلم، تجمعت المشاعر الإنسانية في سحابة تناثرت لؤلؤاً في سماء المدينة التي تزينت بأضوائها الخلابة، محتفلة بتلك اللحظات السعيدة التي انتظرناها طويلاً، لتتجمد الكلمات ويسود جو من الصمت جعل الدموع تلغي كل حديث. واذا كنت تشاهد مثل هذه الأفلام من أجل الاستمتاع، فربما تصاب بالملل، فتعمد إلى تقديم الفيلم مراراً، أو تكتفي بجزء منه، وهذا ما حدث عندما عرضنا فيلم «أضواء المدينة» لطلاب الصف التاسع، فقد اكتفوا بمشاهدة جزء قليل منه، ولكن عندما حضرناه بغرض التحليل، لم نضع دقيقة منه، ناهيك عن التعرض للتفاصيل الدقيقة في أحداثه، وهذا بدوره ينقلنا لغرض مهم يعتري المتخصصين في مجال السينما عند مشاهدة فيلم جديد، فبدل أن يحضره المرة الأولى بغرض

جانب من اللقاء الأول للمعلمين في مشروع «إنتاج الأفلام كسياق وموضوع للتعلّم» الذي ينفذه برنامج البحث والتطوير التربوي، في إطار برنامج الثقافة السينمائية ضمن مسار الفنون في التعليم بالشراكة مع مبادرة مدرستي- فلسطين 2016.

الاستمتاع -وهذا هو الواجب- تجده يغوص في التحليل والتأويل، فيضيع على نفسه بهجة الاستمتاع بأحداث الفيلم، وربما يصدر جزافاً حمكه الأولي برداءة المشاهَد.

من خلال مشاهدة الأفلام وتحليلها، كنا نلمح جوانب التطور التي بدأت تظهر تباعاً للتقدم الزمني من خلال المنافسة بين المخرجين، فنجدهم قد اخترعوا اللقطة القريبة (close up)، كما اخترعوا التقطيع وتمكنوا من تحطيم التقليدية القائمة بين المتفرج والممثل عن طريق تغيير زاوية الكاميرا، واستطاعوا رفع وتيرة التوتر في المشهد من خلال تقصير مدة اللقطة، وعندما سخّروا كل خبرتهم بالمونتاج، ظهر الفرق جلياً في العمل، وأخذت العروض تسحر الألباب والعقول، وتحشد آلاف المتنافسين على شباك التذاكر.

ومن الطرافة التي أحدثتها التطورات العلمية في مجال السينما، أن الصفوف الأولى في دور العرض كانت تلوذ بالفرار عندما تندفع عربات القطار فوق قضبانها، لكن سرعان ما أصبح شيئاً مألوفاً لديهم. بل نجد اليوم الرغبة في الولوج لمسرح الأحداث في الفيلم، حيث تحقق لهم ذلك، بعد تطوير تقنية ثلاثي الأبعاد، التي تجذب محبي المغامرة في دور العرض الخاصة بها.

عندما تم تكليفنا بتصوير دقيقتين على طريقة لوميير، حيث يتم تثبيت الكاميرا في مكان معين، ويتم تصوير المشهد دون إدخال أي مونتاج، واجهتنا صعوبة في اختيار المشهد المناسب، وكلما صورت مقطعاً، بحثت عن تصوير مقطع آخر، فأحياناً تكون زاوية التصوير غير مناسبة، أو أن الكادر لا يشمل الأبعاد المطلوبة، وربما عنصر الحركة في المشهد غير كافٍ، أو تظهر أصوات غير مرغوب فيها، فبعد بحث طويل، قررت تصوير الطيور التي تأتي على حافة شباك البيت فور وضع فتات الخبز يومياً، وعندما تأكدت من الإعدادات كافة، وضعت الخبز على الشباك وشرعت بالتصوير. أخذ الوقت المحدد، وهو دقيقتان، ينفد والطيور لم تحضر بعد، وفي اليوم التالي وبعد القيام بالإعدادات المطلوبة، حَضرت الطيور في الثواني الأولى من التصوير، لكن ابني الصغير استيقظ مُبكراً على غير عادته، فأعجبه منظر الطيور، فأخذ يصدر أصواتاً مبتهجاً بمنظرها، فأضفى هذا جمالاً على المقطع. وقد واجهت

المخرج ميشيل خليفي في لقائه مع المعلمين في مشروع «إنتاج الأفلام كسياق وموضوع للتعلّم»، الذي ينفذه برنامج البحث والتطوير التربوي في إطار برنامج الثقافة السينمائية ضمن مسار الفنون في التعليم بالشراكة مع مبادرة مدرستي- فلسطين، 2016.

الطلاب صعوبات مماثلة في اختيار المقطع بعد تكليفهم بهذه المهمة، إلا أن التجربة أضفت بظلالها الوافرة على خبراتهم في مجال تعلم مبادئ العمل في مجال السينما، فقد كان لمشاركة أحد الطلاب في تصوير بعض المواقع الأثرية في القرية أثر بالغ، حيث قام بتثبيت الكاميرا على أعلى قمة في المنطقة ليضم الكادر أبرز المعالم الأثرية في المنطقة. تجلّت أهمية التصوير عندما قام صاحب الأرض التي تحتوي على تلك المواقع بتجريفها وطمس كل أثر يشير إلى تلك الدلائل التاريخية. وبعد تسليم العروض للمدربة، تم عرضهن مع توضيح المكان والزمان وسبب الاختيار، وفتح نقاش موسع عن كل عرض وتحليله من الجانب التقني، ومن جانب القيمة التاريخية والجمالية، فعندما تطوي السنوات أعوامها المتلاحقة، ستكون هذه اللقطات ذاكرة حية تعيد رجع الحكاية، كالمشاهد التي صورها الأخوان لوميير والتي أصبحت تُعد اليوم مرجعاً مهماً للدارسين تُظهر ملامح حياة السابقين، ويمكن لكل شخص أن يطبق هذه التجربة، ويحتفظ بتلك التسجيلات لأنها ستكون مرجعاً مهماً فيما بعد.

وإذا توقفنا عند الأديب غسان كنفاني، حيث كان لاتصاله بالمخرج العراقي قاسم حَوَل تطوير لعمل سينما الثورة الفلسطينية، حيث قدم أفلاماً تسجيلية منها «النهر البارد» (1973) و«غسان كنفاني: الكلمة والبندقية» (1973)، فقد كُلفنا بقراءة رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس» قبل اللقاء، حيث تم عرض فيلم «المخدوعون»، وهو فيلم سوري من إنتاج المؤسسة العامة للسينما العام 1972، وإخراج توفيق صالح عن رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس» (1963)، يتناول تبعات نكبة 1948 عن طريق ثلاثة شخصيات من أجيال مختلفة،

وظروف مختلفة، لا يجمع بينهم شيء سوى محاولتهم الوصول إلى الكويت للبحث عن فرصة حياة أفضل.

تم النقاش حول العلاقة بين النص الروائي والسينمائي، وحول الطريقة التي يمكن أن نسير وفقها لتوظيف الفيلم بعد عرضه للطلاب، فقد جاء عرض الفيلم بعد أن قمنا بقراءة الرواية كاملة، حيث صرنا نشهد تباعاً، وعبر النقاش المتواصل، المواقف التي تم اختيارها لتصوير الفيلم، وهل التزم بالحوار الوارد في النص؟ وما هي الأمور التي تم تبديلها، والأسباب التي دعت المخرج إلى ذلك؟ وهذا الأسلوب أتاح لنا المجال للوقوف ملياً عند النص المقتبس من رواية «رجال في الشمس» الوارد في منهاج اللغة العربية للصف السابع - الفصل الأول، ومع عرض بعض مشاهد الفيلم ونقاشها وتحليلها، تولد لديهم الحب في مشاهدة الفيلم كاملاً، والعودة إلى المكتبة لقراءة الرواية، وهذه الترجمة الحرفية لمصطلح «إثراء المنهاج» الذي نردده مراراً ولا نعي المقصود منه، أو ربما نخوض فيه بطريقة غير مناسبة، ويكون لها مردود سلبي.

بعد كل لقاء، كنا ننقل للطلاب في المدرسة بعض ما تعلمناه، ونحاول أن نطبق عملياً على بعض جوانب السينما، ومن خلال عرض الأفلام تصبح الفرصة سانحة للوقوف ملياً عند المقاطع والصور وتحليلها، فقد أصبحت ثقافة السينما من ضمن الأولويات التي عملنا على توظيفها في التعليم، وكان النقاش حاضراً، والأسئلة متبادلة، ونقدم الإجابات عن تساؤل الطلبة، فما أصل تسمية «هوليوود»؟ ... نعم فهي مجرد ضاحية هادئة صغيرة من ضواحي مدينة لوس أنجلوس بجوها البديع المشمس، حيث اكتشفها أهل السينما فوضعوها على الخريطة، وعندما تأكدت سيطرة الولايات المتحدة على الإنتاج السينمائي العالمي بعد العام 1918، أصبحت تلك الضاحية «هوليوود» عاصمة السينما في العالم كله، وما زالت حتى الآن تتربع على عرش السينما العالمية. وعندما حضرت فيلم (dogville)، حيث يرجع أصله لرواية من تسعة فصول، فالفيلم لم يُصور بالشكل المعتاد، بل صُور على موقع محدد وفضاء معلوم ببداية ونهاية، نهاية تحدها الظلمات من كل حدب وصوب، فقد أعجبتني عبارة وردت فيه تقول «الشك ينمو إذا كانت بذوره مغروسة»، فتصلح تلك العبارة عنواناً لموضوع التعبير في المدرسة، أو تنسج حولها مواقف درامية عديدة، حيث تتناول مشكلة معينة خسر طرفا الصراع فيها أموراً جَمّة، ثم نبدأ بالعودة إلى التطورات التي جدَّت على المشكلة، حتى نصل لبدايتها، لنكتشف أن جلها سببه الشك الذي غُرس دون دليل، وبهذه الطريقة يمكننا اقتباس أي لقطة أو عبارة من الفيلم، والانطلاق منها لما يخدم الموقف التعليمي وغرس القيمة التي نحتاج إلى تعزيزها لدى الطلبة.

حتى تخوض غمار الفيلم الروائي، لا بدّ أن تُجيش أفكارك وتستمطر عصارات ذهنك ولو لزمت غرفتك وعاهدت نفسك ألا تبرحها قبل أن تستدعي ما تختزنه ذاكرتك كي تخرج بفكرة جديدة تستحق أن تطرح ثماراً وقطوفاً تُشكل اللبنة الأساسية للسيناريو: فهو الفيلم المكتوب على الورق، أما ريموند سبويتوود (Raymond Spoitood)، فإنه يعرِّف السيناريو من خلال تحليله لطبيعة دور الكلمة المستخدمة في كتابه، فيقول: «إن السيناريو هو تسجيل المعاني المصورة، باستخدام الكلمات، التي يمكن ترجمتها فيما بعد إلى انطباعات مصورة بواسطة الكاميرا والمخرج»، فقد تعرفنا على شكل السيناريو وعناصره، كما قمنا بمناقشة أجزاء من بعض السيناريوهات، وتقمصنا أدوارها دراميا، وعملنا على نسج سيناريو حول الفكرة التي خرجنا بها، ومن خلال مناقشتها جماعياً، تولدت لدينا المقدرة على تحرير سيناريو بشكل صحيح.

وما إن حطت رحالنا في عالم التصوير والكاميرا، حتى ألقت (الكاميرا) بظلالها الواسعة المتشعبة على تفكيرنا ورؤيتنا لتلك الجوانب التي أخذت تُسحر الألباب بجوانبها التي تشهد تطوراً يوما بعد يوم مع التقدم التكنولوجي الذي فتح المجال

لقاء للمعلمين مع المخرجة ليلى عباس ضمن برنامج الثقافة السينمائية، الذي نفذه برنامج البحث والتطوير التربوي، 2015.

واسعاً للإبداع، ويعتمد المصور في أداء عملية التصوير السينمائي على ثلاثة مكونات رئيسة، وهي: زوايا التصوير، والإضاءة، والكادر السينمائي. أما زوايا التصوير، فهي اللقطة الناتجة من وضع الكاميرا لتصوير موضوع من زاوية ما يستطيع أن يترك بين أيدينا العديد من المعاني والدلالات التي تضفي على زاوية التصوير قوة بلاغية وتأثيرية فائقة الروعة. هذه القضايا وغيرها كنا نتناولها نظرياً، ونقوم بتطبيقها عمليا، حيث تم توفير معدات التصوير كافة، وتدربنا على كيفية استخدامها، وتم التركيز على إعدادات الكاميرا وضبطها بالشكل الصحيح الذي يتيح للمصور تسجيل المشاهد بتقنية عالية الجودة. وبعد أن قمنا بتوضيح هذه المصطلحات للجنة السينما المختارة من الطلاب الذين لديهم رغبة في الخوض في هذا المجال، أحضروا في اليوم التالي الكاميرات للمدرسة، وقمنا بتصوير بعض المشاهد، مع الأخذ بعين الاعتبار المكونات الرئيسة لعملية التصوير.

جانب من لقاء المعلمين مع المخرجة ليلى عباس ضمن برنامج الثقافة السينمائية، 2015.

بعد الانتهاء من دراسة الجانب النظري من خلال عرض الصور ومقاطع الفيديو التي تظهر تقنيات التصوير والتدرب على استخدام الكاميرا، والتعرف على أجزائها وإعداداتها وتقنية التصوير، وبعد مناقشة السناريوهات النهائية، وتحديد طاقم العمل، شرعنا بتصوير الأفلام القصيرة، وقد واجهتنا بعض الصعوبات، لأن المكان يفاجئك بمستحدثات جديدة لم تؤخذ بعين الاعتبار، فتجاوزنا المعيقات قدر المستطاع، وبعد الانتهاء من عملية التصوير بدأنا بالمونتاج، حيث تدربنا على برنامج «أدوب بريمير» (**Adobe Premiere**)، حيث مكننا من إعداد الصيغة النهائية للأفلام.

وبعد أن تعرفنا على عناصر إنتاج الأفلام كافة، قمنا بمشاركة مجموعة من طلاب المدرسة في العمل على إنتاج فيلم قصير، حيث اخترنا فريق العمل، وقمنا بمناقشة السيناريو بصيغته النهائية، واخترنا أربعة طلاب، ووضحنا لكل طالب دوره في الفيلم، ثم خرجنا لموقع التصوير بعد تحضير الكاميرا والأغراض اللازمة، كما قمنا بالتنسيق مع أصحاب البيوت التي سيتم التصوير في فنائها، خرجنا إلى موقع التصوير، وحددنا الزوايا التي سيتم التصوير فيها حول فكرة بسيطة تعكس جانباً تربوياً وطنياً واجتماعياً، وعند الانتهاء من التصوير، قمنا بالعمل على المونتاج الذي أخذ وقتاً بين الحذف والإضافة والتعديل حتى انتهى العمل. ثم قمنا بعرض الفيلم لطلاب المدرسة، حيث أبدوا إعجابهم بالعمل والفكرة، وبهذا نكون قد أضفنا إلى جانب توظيف الأفلام السينمائية في التعليم، فكرة صناعة الفيلم حسب ما تقتضيه المناهج التعليمية، وهو أسلوب يساعد على كسر روتين التعليم بالتلقين، وينهض بالمسيرة التعليمية، وبخاصة أن الفيلم السينمائي يشهد رواجاً عالمياً وإقبالاً منقطع النظير من شرائح المجتمع كافة، فإذا قمنا بمتابعة هذه الفكرة، نكون قد أوجدنا الدافعية للإقبال على تلقي التعليم من قبل طلاب المدارس، الأمر الذي نفتقده لديهم. وهذا ما تهدف له مؤسسة عبد المحسن القطان من خلال تدريب المعلمين على إنتاج الأفلام وتوفير الدعم اللازم قدر المستطاع.

وزارة التربية والتعليم العالي – رام الله

الهوامش

1 كُتبت هذه المادة ضمن مشروع صناعة الأفلام/برنامج «السينما في التعليم» (أيلول 2014 – نيسان 2015)، الذي ينفذه برنامج البحث والتطوير التربوي/مؤسسة عبد المحسن القطان، وانخرط فيه 21 معلماً ومعلمةً من مدارس فلسطينية مختلفة، وبإشراف المخرجة الفلسطينية ليلى عباس. هدف المشروع إلى تدريب معلمي المدارس حول مراحل إنتاج الأفلام، والمونتاج، والتصوير، والإخراج، وتمكينهم للقيام بتدريب طلابهم على صناعة الأفلام، حتّى يتمكّن الطلاب من إنتاج أفلام تلامس حياتهم الاجتماعية واليومية، وتوثيقها بالصوت والصورة، بحيث تحمل دلالات تربوية وتاريخية وإنسانية. واشتمل المشروع على تسعة لقاءات موزعة على ثلاث مراحل، بحيث ركزت المرحلة الأولى على البعد النظري للسينما، في حين اشتملت المرحلة الثانية على لقاءات حول التصوير السينمائي، وتطوير الأفكار لتحويلها لنصوص سينمائية. وقام المشاركون في الفترة التي فصلت المرحلتين بتصوير أفلامهم الخاصة في مجموعات، ليقوموا خلال المرحلة الثالثة بمونتاج أفلامهم وعرضها بشكل جماعي ضمن المساق.